المبحث الأول

المقامية

تعريف المقامية [1] Situationality

كثرت تعاريف هذا المصطلح وهي على كثرتها ذات دلالات متقاربة ، وقد يحددها بعض الدارسين باسترجاع موقف سائد كما فعل (دي بوجراند) إذ هي عنده « تتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه » [2] .

وهذا لا يعني أبدًا إغفال المقامية الحاضرة التي تتزامن وإنتاج النص فهي « تسمية عامة للعوامل التي تقيم صلة بين النص وبين موقف لواقعة ما ، سواء أكان موقفا حاضرًا أم قابلا للاسترجاع » [3] .

لذا يكون من المنطقي أن يراعي المتلقي المقامية في النص سواء أ كان هذا النص مسموعًا أم مكتوبًا ، وبما أن المقام يتناول زمان الحدث التواصلي ومكانه ، وكذلك العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه[4] ، أصبحت الحاجة له ضرورية عند تحليل النصوص .

---

(١) ترجمها الدكتور تمام حسان إلى (الموقفية أو رعاية الموقف) يُنظَر : النص والخطاب والإجراء : ١٠٤ .

(٢) النص والخطاب والإجراء : ١٠٤ ، ويُنظَر : مدخل إلى علم لغة النص : ١٢ .

(٣) مدخل إلى علم النص : ٢٠٩ .

(٤) يُنظَر : لسانيات النص : ٥٣ .

ومن هذا الجانب يتناوله الباحثون في كلامهم عن السياق الخارجي ، وقد عرفت العلوم العربية[1] السياق بوجه عام والخارجي منه على وجه الخصوص ، ففي علوم القرآن علم أسباب النزول الذي هو « إبانة ما أنزل فيه من الأسباب إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها »[2] فبالوقوف على المقامية في قصة الآية وسبب نزولها يحدد المعنى المراد ويزول الإشكال .

نظرًا إلى أن شعر الصعاليك في العصر الأموي وَصَل إلينا مكتوبًا ، فالمواقف التي جرت عند عملية الإنتاج غائبة عن نصوصه غير أنَّه يمكن استرجاع بعض هذه المواقف ؛ لأنها مواقف سائدة .

ومع هذا فمن الممكن أن يروي الشاعر الصعلوك بعض المواقف وهو ينقل صورة ما ، كما في قول : (جعفر بن عُلبة الحارثي) : [3] [الطويل] .

أَشارَتْ لَنا بـالكَفِّ وهـي حزيْنَـةٌ تُوَدِّعُنَـا إذْ لَـمْ يُـوَدِّعْ سَـلامُها

ينقل الشاعر موقفا يجري عند الوداع وهو الإشارة باليد ، وهو ما يمكن استرجاعه وتصوره إذ هو سائد في مثل هذه الواقعة ، ثم هي حزينة وهذه الحالة تمثل صورة أخرى من صور هذا الموقف الوداعي ، إذ الحزن الذي عناه الشاعر قد يكون ظاهرًا على ملامح وجهها .

---

(١) يُنظَر : البيان في روائع القرآن : ١٦٤/١ ، دلالة السياق ، الدكتورة ردة الله بن ردة الله ابن ضيف الله الطلحي ، جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية ، مكة المكرمة ـ المملكة العربية السعودية . ط/١، ١٤٢٤هـ : ٥٠، المصطلحات المفاتيح : ٣٥-٣٦ ، نظرية السياق بن الموروث العربي واللسانيات الحديثة الدكتور حسن طبل ، مجلة فكر وإبداع ، ج/٥٣ ، يونيو ٢٠٠٩م : ٦٤-٦٦ .

(٢) أسباب النزول ، تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، تخريج وتدقيق : عصام بن عبد المحسن الحميدان ، دار الإصلاح ، الدمام ـ السعودية ، ط/٢ ، ١٩٩٢م : ٨ ، والإتقان : ٧١ .

(٣) ديوان اللصوص : ١٩٥/١

وهذه الصورة قد تكون واقعة بالفعل ، أو هي في نسج خيال الشاعر فكثيرا ما يبدع الشاعر في إخراج الصورة في خياله بشكل أحداث ومواقف محسوسة .

فليس في الواقع بين يدي تحليل النص التراثي ـ شعر الصعاليك في العصر الأموي ـ من خلال سياقه غير اللغوي بيانات تساعد في التحليل كالأداء الصوتي أو الحركي ، وذلك أنَّه نص مكتوب[1].

المقامية في نحو الجملة

اهتم علماء العربية بالمقامية ، وقد تجلى هذا الاهتمام «لدى علماء البلاغة العرب في الشعارات التي لا يكاد يخلو منها كتاب بلاغي ، والتي تظهر ما للموقف من أهمية ومن بينها (لكل مقام مقال) ومراعاة مقتضى الحال»[2].

سبق أن عرضت لكلام الدكتور (أحمد عفيفي) في تقسيم الدكتور (تمام حسان) لمعايير النصية إلى معايير مشتركة بين نحو الجملة ، ونحو النص ومعايير خاصة بنحو النص وهي ما عدا السبك والحبك .

وقد تعرض الدكتور (عفيفي) في مناقشته للموقفية فقال : «يبدو أن مجموعة المعارف السابقة مفيدة في تحديد الموقف وتحليل الخطاب بناءً عليه»[3] .

هذا النص هو تعليق على توجيه قوله «أَذَاهُمْ» من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ (الأحزاب:٤٨) ، فالكلام عنه هل المصدر (أذى) مضاف إلى الفاعل أو مضاف إلى المفعول ، وإن رعاية الموقف تلزم إضافته إلى الفاعل على الرغم من أن نحو الجملة لا ينفي كون المصدر (أذى) مضافا إلى الفاعل أو إلى المفعول .

---

(١) يُنظَر : علم لغة النص النظرية والتطبيق : ١١

(٢) مدخل إلى علم لغة النص : ١٩ .

(٣) نحو النص : ٨٥ .

فعلى هذا « يبقى لنحو الجملة تلك الاحتمالية ، على حين أن نحو النص حسم الأمر من خلال رعاية الموقف أو المقامية »[1] ، والذي يظهر هنا تأييد ما ذهب إليه الدكتور (عفيفي) من أن المقامية لها علاقة بنحو الجملة ، مع ملاحظة أن الاحتمالية الباقية لنحو الجملة قد تكون مرجحة بأدلة لنحو الجملة نفسه ، المعبر عنها أحيانًا بالسياق اللغوي الداخلي .

احتمال صيغة (أفعل) للاسمية والفعلية :

مثاله ما جاء من قول جعفر بن عُلبة الحارثي[2] [الطويل]

ولا أنّ نفسي يَزْدَهِيْهَا وَعِيْدُكُمْ ولا أنّني بالمَشْي في القَيْدِ أخْرَقُ

يقول الدكتور (فخر الدين قباوة) عن كلمة (أخرق) : « فهي تحتمل أن تكون صفة مشبهة من الخرق وهو الاضطراب ، وأن تكون فعلا مضارعًا من ذلك المعنى ، غير أن الخبر لـ(أن) الأولى بالجملة (يزدهي) يرجح الفعلية لتصير الجملة (أخرق) من الفعل والفاعل في محل رفع خبراً لـ(أن) الثانية »[3]، وهذا هو استعمال للسياق اللغوي في ترجيح قول على آخر .

وبالرجوع إلى قوله تعالى في الآية « ﴿ **وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا** ﴾ (الأحزاب:٤٨) ، ففي سياقها الداخلي ما يستبعد احتمال إضافة المصدر (أذى) إلى المفعول ، إذ المعنى يكون : « ودع أن تؤذيهم بضرر أو قتل »[4] فهو أمر بترك أذيتهم وتقويمهم[5] ،

---

(١) نحو النص : ٨٥ ، هامش ١٦٤ .

(٢) ديوان اللصوص : ١٨٨/١ . ومعنى يزدهيها أي يستخفها والأخرق الذي لا يحسن العمل . يُنظَر : شرح حماسة أبي تمام : ٤٢٠/١ .

(٣) التحليل النحوي ، أصوله وأدلته ، الدكتور فخر الدين قباوة ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، الجيزة ـ مصر ، ط/١/٢٠٠٠م : ١٢٥ .

(٤) الكشاف : ٧٩/٥ .

(٥) البحر المحيط : ٢٣٠/٧ .

فكيف يُنهى ﷺ عن أذيتهم ، وعن طاعتهم فلو كان قد آذاهم بشيء يلزم منه عدم طاعة لهم .

أن الخفيفة بعد فعل الظن [1] :

يترك النحو الحكم على (أن) إذا جاءت بعد ظن أهي مخففة من الثقيلة أم هي مصدرية ناصبة ، والفيصل في هذا التردد هو المقامية ، فإذا كان الظن راجحًا فهي المخففة من الثقيلة ؛ لأنَّ الظن الراجح أقرب إلى اليقين وهو يناسب التأكيد .

وإذا كان الظن محضاً كانت أن مصدرية ناصبة وهي تعمل في مقام الرجاء والظن الذي يناسبها[2].

ما تقدم هو فحوى قول النحاة غير أنَّهم لم يتعدوا هذا إلى تحرير أن السياق هو الحاسم بأن يكون فعل الظن راجحًا أو مرجوحًا ، ووجه الجواز لديهم ماورد من القراءة بالرفع والنصب للفعل (تكون) في قوله تعالى : ﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ (المائدة:٧١) [3] . «فالرفع على أن الحسبان بمعنى العلم وأن المخففة من الثقيلة العاملة في الأسماء ولا عوض عن الذاهب والتقدير : «وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ»، والنص على الشك بإجرائه مجرى الخوف و(أن) العاملة في الفعل النصب»[4].

---

(١) ومن مسائل النحو على هذا النمط ، جعل كاد بمنزلة عسى بدخول (أنْ) على خبرها وجعل عسى بمنزلة كاد وتجريد (أنْ) من خبرها ، فمرده الموقفية ، يُنظَر : شرح المفصل : ١٢١/٧ .

(٢) يُنظَر الكتاب : ١٦٦/٣-١٤٨ ، والمقتضب : ٣/٧-٨ .

(٣) يُنظَر : كتاب السبعة في القراءات تأليف : أحمد بن موسى بن العباس التميمي ، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت٣٢٤ هـ) تحقيق : الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ـ مصر ، ط/٢ ، ١٤٠٠هـ : ٢٤٧ .

(٤) شرح المفصل : ٧٧/٨، ويُنظَر : الجنى الداني : ٢٢٠، شرح التصريح : ١٣٤/٢ .

ولعل (سيبويه) كان أقرب النحاة إلى مراعاة المقامية في إجازة الرفع في الفعل بعد (أن) مع تصدر غير اليقين الكلام والنصب في الفعل بعد (أن) مع تصدر الكلام بيقين ، فيقول : «ولو قال رجل : أخشى أن لا تفعل ، يريد أن يخبر أنَّه يخشى أمرًا قد استقر عنده أنَّه كائن جاز ، وليس وجه الكلام»[1] .

وما أجازه (سيبويه) هنا لين جانب منه في تطبيق القاعدة النحوية على الرغم من تحرزه بأنَّه ليس وجه الكلام ؛ لذا اعترض عليه (المبرد) (ت٢٨٥هـ)[2] ، و(سيبويه) يؤكد ما يراه فيقول : «وتقول : ما علمت إلا أن تقوم وما أعلم أن تأتيه ، إذا لم ترد أن تخبر أنك قد علمت شيئا كائنا البتة ، ولكنك تكلمت به على وجه الإشارة ، كما تقول : أرى من الرأي أن تقوم ، فأنت لا تخبر أن قيامًا قد ثبت كائنًا أو يكون فيما يستقبل البتة مكانه قال : لو قمتم»[3].

ومنه ما جاء في قول (طهمان بن عمرو الكلابي)[4] : [الطويل]

ضَرَبْتُ بِهِ عَبْدًا سَمِيْنًا فَفَلَّهُ وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يُفَلَّلَ كَاهِلُهْ

الخشية عند (طهمان) لم تكن أمرا استقر عنده ، فهي كائنة الوقوع كما يقول (سيبويه) : بل خشية غير متحققة ، لذا نصب الفعل (يفلل) على أن (أن) مصدرية ناصبة ، فالشاعر في مقام الرجاء ، فناسب هذا المقام أن تكون أن ناصبة وليست المخففة من الثقيلة التي تفيد التأكيد .

---

(١) الكتاب : ١٦٧/٣ ، والذي جعلني أنسب هذا القرب إلى سيبويه دون غير من المتقدمين ، استبعاد المبرد لرأيه كما أني لم أقف على قول للنحاة يوسع في مذهب سيبويه ، يُنظَر : المقتضب : ٨/٣ .

(٢) يُنظَر : المقتضب : ٨/٣ .

(٣) الكتاب : ١٦٨/٣ .

(٤) شرح ديوان طهمان بن عمرو الكلابي : ١٤٨ . الفَلل : الثَّلْم فِي أَيّ شَيْءٍ كَانَ ، فَلّه يَفُلُّه فَلاً وَفَلَّلَه فتفَلَّل وانفَلَّ وافتَلَّ . لسان العرب : (فلل) ٥٣٠/١١.

ومثل هذا أيضًا قول مالك بن الريب[1] : [الطويل]

مَا زِلْتَ يَوْمَ الصُّـفْدِ تَرْعَـدُ وَاقِفًـا مِنَ الجُبْنِ حَتَّـى خِفْـتُ أَنْ تَتَنَصَّـرَا

قال هذا في هجاء (سعيد بن عثمان بن عفان) ، وكان أميرًا للجيش ، وجاء خوف (مالك) من تنصره على غير الجزم والقطع في هذا الخوف ؛ فنصب الفعل (تتنصر) بأن المصدرية ، ولم يجعلها المخففة من الثقيلة ، إذ الخوف من تنصره لم يكن قد استقر عنده فلم يقطع به ليأتي بالمخففة لتأكيد .

مقامية (السجن) في شعر الصعاليك الأمويين

وصل إلينا شعر الصعاليك مدونًا ، فالشاعر يحاول فيه تقديم وجهة نظره في جانب من جوانب الحياة ، ولا شك في أن أي شاعر منهم له رؤيته الخاصة للعالم من حوله تظهر هذه النظرة وتلك الرؤية من خلال ما يختاره من ما يحيط به ويلابس أحداثه ، فتكون «الاختبارات لما يقال من خلال ذلك النص وكيف يقال»[2] ، وهو ما يظهر المقامية في نصوص شعرية لهؤلاء الشعراء الصعاليك .

ولعلي أكتفي بموقف سائد في أشعارهم يمكن استرجاعه ، وتصور موقف الشاعر فيه من خلال ألفاظه وعباراته التي جاء النص بها ، فالنص يقرأ بها قراءة كاملة.

يعد من الطبيعي أن تكثر السجون في زمن يوصف حكامه بالشدة والقسوة ويرمى ولاته بالظلم والتجبر ، فعهد بني أمية انتهى سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة وكانت بدايته عند تولي (معاوية بن أبي سفيان) الحكم سنة أربعين للهجرة [3]. وقد حدثت فيه فتن وحروب داخلية كثيرة أثارها الخصوم

---

(١) شعراء أمويون : ٢٩/١ .

(٢) علم لغة النص النظرية والتطبيق : ١١ .

(٣) يُنظر : بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء : ١٣٨ .

السياسيون من الزبيريين والخوارج والشيعة [1] بالإضافة إلى قطاع الطريق من اللصوص والصعاليك فقد قامت بمطاردتهم واضعة المكافآت للقبض عليهم[2].

وتجدر الإشارة إلى أن وصف السجون وذكر المعاناة فيها «من الموضوعات الجديدة التي تميز به شعر الصعاليك الأمويين عن شعر الصعاليك الجاهليين، وجد هذا الموضوع نتيجة الحياة الاجتماعية والسياسية القائمة في العصر الأموي»[3].

ولعل زمن (عبد الملك بن مروان) كان أشد العهود على هؤلاء الصعاليك[4]، الذي بويع للخلافة سنة خمسة وستين هجرية ودامت خلافته نحو إحدى وعشرين سنة، وكان حازمًا في رأيه ولا يَكِل أمره إلى غيره[5].

فقد عانى (جحدر) مرارة السجن وصوَّره خير تصوير في شعره، وهذه الصورة لا شك في حدوثها في ظروف (زمان ومكان)، كما أنَّه لا بُدَّ من ملابستها ببعض الانفعالات الحركية والصوتية، وهذه الظروف والانفعالات في حادثة السجن هي ظروف وانفعالات يمكن تصورها واسترجاعها، إذ هي متوقعة وأنماط عادة ما تكون متشابهة الأحداث، وهذا الموقف لدى (جحدر) يحمل معاناته في السجون:

---

(١) يُنظَر: التطور والتجديد في الشعر الأموي: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط/٩، ١٩٩١م: ٨٥، البطولة في الشعر العربي، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط/٢، ١٩٨٤م: ٥٢.

(٢) يُنظَر: شرح أبيات مغني اللبيب، صنفه عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ) حققه: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ط/٢، ١٩٨٨م: ٣/٢١٠، الصعاليك في العصر الأموي، أخبارهم وأشعارهم، إعداد: محمد رضا مروة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط/١، ١٩٩٠م: ١١٠. كيف جعل والي اليمامة جعلا كثيراً لفتيان بني يربوع للقبض على جحدر العكلي.

(٣) الصعاليك في العصر الأموي: ١١٠.

(٤) الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، الدكتور حسين عطوان: ٧٨.

(٥) بلغة الظرفاء: ١٤٨.

يقول : [1] وهو في سجن ديماس[2] [البسيط] .

إنَّ اللَّيَالِي نَجَتْ بِي فَهْيَ مُحْسِنَةٌ ... لا شَكَّ فِيْهَا مِنَ الدَّيْمَاسِ وَالأَسَدِ

وَأَطْلَقَتْنِي مِنَ الأَصْفَادِ مُخْرِجَةً ... مِنْ هَوْلِ سِجْنٍ شَدِيْدِ البَأْسِ ذِي رَصَدِ

كَأَنَّ سَاكِنَهُ حَيًّا حُشَاشَتُهُ ... مَيْتٌ تَرَدَّدَ مِنْهُ السَّمُّ فِي الجَسَدِ

فهذا السجن شديد البأس ، وهذه صفة للسجن ذاته ليست للسجان أو الحرس أي : أن المكان فيه قسوة على حقيقته ومع هذا هو مرصود وفيه قطع لحديث النفس بالهروب ؛ إذ إن الموقف السائد في غالب نفوس المسجونين أنَّهم يفكرون بالهرب والتخطيط له ، غير أن (جحدرًا) يقطع هذا بأنَّه (ذو رصد) ، فعظمت بهذا مصيبة السجون ، فتشبيه ما هو فيه بأنَّه ميت في حالته وإن جرت الأنفاس فيه فهو حيّ حياة جسد أخذ السم منه مأخذه ، فهو بهذا يصدق تسمية القبر على الديماس الذي فيه جحدر وهو سجين وغريب ؛ إذ إنه من أهل اليمامة أخذه وَالِيهَا فأرسله إلى الحجاج فسجنه بالديماس ، ولعله آخر سجن له ، وهو بين الغربة وقهر السجن ومخافة الأسد الذي سينازله أو بطش الحجاج به .

ولعل (الديماس) سجن استحق بحق هذه السمعة ، يظهر هذا عندما يقارن وصفه بما وصف به سجن غيره ، ولأنَّهما بمراعاة الموقف الذي وصفه مسجونوه ، فالعوامل الخارجية لها أثرها الظاهر هنا كالغربة وتوعده بالقتل ومنازلته للأسد .

---

(١) شعراء أمويون : ١٧٢/١ ، وفيه (نحت بي). والحُشَاشَةُ بضَمِّهما : بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي القَلْبِ ، وَهُوَ الرَّمَقُ فِي المَرِيضِ والجَرِيحِ . تاج العروس : (حشش) ١٤٩/١٧ .

(٢) هو سجن كان للحجاج بن يوسف الثقفي في واسط ، وهذا الاسم تشبيه له بالليل لظلمته وهو اسم للقبر أيضًا يغيب فيه المسجون ، فكأنَّه قبر للأحياء يُنظَر : أساس البلاغة : (دمس) ٢٩٨/١ ، لسان العرب : (دمس) ٨٨/٦ .

ومهما يكن من شيء فالشاعر يصف دَوَّار وهو سجن باليمامة [1] سجن الشاعر فيه غير أن الموقف هنا يختلف كثيراً ، فهو وإن كان سجينًا لكنه لم يكن غريبًا ، وإن كنت لا أقطع عنه الوجل والخوف من مصيره غير أني أزعم أنَّه في (الديماس) كان أكثر وَجَلا وأشد خوفًا . يقول (جحدر العكلي)[2] : [البسيط]

يَا صَاحِبَيَّ وَبَابُ السِّجْنِ دُونَكُمَا ... هَلْ تُؤْنِسَانِ بِصَحْرَاءِ اللِّوَى نَارَا

لِوَى الدَّخُولِ إِلَى الجَرْعَاءِ مَوْقِدُهَا ... وَالنَّارُ تُبْدِي لِذِي الحَاجَاتِ أَذْكَارَا

لَوْ يُتْبِعُ الحَقُّ فِيمَا قَدْ مَنِيتُ بِهِ ... أَوْ يُتْبِعُ العَدْلُ مَا عَمَّرْتَ دَوَّارَا

إِذَا تَحَرَّكَ بَابُ السِّجْنِ قَامَ لَهُ ... قَوْمٌ يَمُدُّونَ أَعْنَاقًا وَأَبْصَارَا

فدوار سجن باليمامة وهي بلده ، وإليها يُنسب كما أنَّه لم يسجن به أول مرة فقد تكررت أخبار سجن فيه من خلال شعره كقوله[3] : [الكامل]

كَانَتْ مَنَازِلُنَا الَّتِي كُنَّا بِهَا ... شَتَّى وَأَلَّفَ بَيْنَنَا دَوَّارُ

هذا مما يقلل من وحشته وغربته ، ثم إن له في دوار رفقة يستهل بمناداتهم (يا صاحبي) على خلاف ما كان عليه الحال في الديماس فهو يستهل بذكر (الليالي) ويرجو النجاة بإحداها ، وبما أنَّه في دياره فهو يحدد أماكنها (لوى الدخول) و(الجرعاء) وهو يوردها باستفهام عن الأنس بالنار التي توقد فيها .

---

(١) يُنظَر : معجم البلدان : ٢/٤٧٨-٤٧٩ ، تاج العروس : (دور) ١١/٣٣٥ .

(٢) شعراء أمويون : ١/١٧٤ . ومُنِيتُ بِكَذا وكَذا : ابْتُلِيت بِهِ . لسان العرب : (مني) ١٥/٢٩٣ .

(٣) شعراء أمويون : ١/١٧٦ . ثم هو يذكر هذا السجن في مدح لصاحبه فيقول :

سَقْيًا لِسِجْنِكَ مِنْ سِجْنٍ وَسَاكِنِهِ ... بِدِيْمَةٍ مِنْ ذَهَابِ المَاءِ مِدْرَارِ

كما أنه ذمه وتمنى زواله (شعراء أمويون : ١/١٨١) إذ يقول : [البسيط]

يَا رَبِّ دَوَّارَ أَلْقِذْ أَهْلَهُ عَجِلاً ... وَانْقُضْ مَرَاتِرَهُ مِنْ بَعْدِ إِبْرَامِ

رَبِّ ارْمِهِ بِخَرَابٍ وَارْمِ بَانِيَهُ ... بِصَوْلَةٍ مِنْ أَبِي شِبْلَيْنِ ضِرْغَامِ

ومع هذا يرى أنَّه مظلوم مجني عليه ، وأن الحق والعدل يقضيان أن لا يقيم بدوار ، ثم إن في سجنه بارقة أمل إذ لهذا السجن باب يفتح ، وهذا الموقف الحركي يصحبه انفعال آخر من ساكني هذا السجن فهو إذا ما تحرك بابه ، قام له قوم يمدون أعناقًا ويحدقون بأبصارهم إلى خارجه ، وليت شعري هل هذه المواقف إلا مواقف سائدة في حالة كل مسجون حبيس عن الخروج .

ولجحدر تجربة مع سجن آخر هو (المخيس) وهو في بيضاء البصرة [1] فهو يقول فيه[2] :[البسيط]

أَقُوْلُ للصَّحْبِ فِي البَيْضَاءِ دُونَكُمُ ... مَحَلَّةً سَوَّدَتْ بَيْضَاءَ أَقْطَارِي

مَأْوى الفُتُوَّةِ لِلأَذْلَالِ مُذْ خُلِقَتْ ... عِنْدَ الكِرَامِ مَحَلُّ الذُّلِّ والعَارِ

كَأَنَّ سَاكِنَها مِنْ قَعْرِهَا أَبَدًا ... لَدَى الخُرُوْجِ كَمُنْتَاشٍ مِنَ النَّارِ

إن (جحدرًا) في هذا السجن أكثر معاناة في سجن دَوَّار إذ ظهر ما وجد في شدته ، فهو قد سود له أيام صباه التي قضاها سعيدة بيضاء في دياره ، وإن سجن هذه شدته لهو شديد لاشك . كما أنَّه يرى أن السجن عار على الرغم من أنَّه يكون مأوى للفتوة غير أنَّه عند كرام الناس هو محل للذل والعار . فكأنى به غير راضٍ به منزلا ، لشرف يراه في نفسه ، ثم إنَّه في وصفه أن الخارج منه كأنَّه خارج من النار بعد أن احترق بها يقترب كثيرًا من صفة الديماس الذي جعل منه قبرا للأحياء ، لكنه يقصر دونه فهو في البيضاء يذكر الصحب أيضًا ، ثم هو يأمل من الصحب أن يخلصوه فالأمل بالهرب غير منقطع .

---

(١) معجم البلدان : ١/٥٣٠ .

(٢) ديوان اللصوص : ١/١٦١. وَيُقَالُ : أتاشَني فلانٌ مِنَ الهَلَكةِ أي أَنْقَذَني ، لسان العرب : (نوش) ٦/٣٦٢ .